الافخارستيا في الفرض الماروني

بقلم الخوري فرنسيس نعمه البيسري

همّ البقاء. دفع الموارنة الى جبل لبنان والظلم حدا بهم على أن يتخلوا عن السهول الخصبة وان يلجأوا الى هذه الجبال العصية والاودية السحيقة يعملون في صخورها نحتاً وتفتيتاً فاذا هي « حقـاقي متدرجة ، وجناتٌ غنّاء ، وبساتين جوزة ، وكروم من التوت ، واساقيل من الدوالي واذا هي رائعة من الروائع »[1] واذا بها تصبح مع الزمن موارد رزق وحياة « لهذه الامة الصغيرة المحتشدة التي عمرت اكثر مما عمرت امبراطورية القسطنطينية التي اضطهدتها »[2] . لكن لا يخطرنّ على بالنا ان همّ البقاء كان الدافع الأوحد لتوطن الموارنة لبنان ، وان موارد رزقه الشحيحة هي التي حملتهم على الاستقرار في هذا الجبل. هناك دواع دينية دعتهم الى التوطن فيه وهذا ما يثبته فرارهم من وجه النساطرة وهذا ما يقره احدث ابحاث الجغرافية البشرية ؛ وفيه يقول العالم دي فوماس « انه ليس على وجه الدنيا جبل تضاهي نسبة سكانه مع ضيق رقعته نسبة سكان لبنان. وليس غنى الارض او ما تحت الارض هو ما اقرّ سكانه فيه . ولو كان الانسان يعيش من الهواء الطيب لقلنا : الفضل للهواء . ولكن الحق انه ينبغي رفع النظر الى ما فوق الهواء . فما اقرّ الموارنة في لبنان الّا اعتقادهم بأن الانسان ليس بالخبز وحده يحيا »[3]. نعم لقد عاش الماروني في هذه الجبال منقطعاً اكثر ايامه عن روما والكنيسة مجبرا على الانزواء عن العالم وقطع المواصلات معه . انما لم يعش ابدًا بعيدًا عن معتقدات الكنيسة كل معتقداتها بل عاشها فأحبّته ، وقدّسها فقدسته ، واحترمها فحفظته ، واضرم جذوتها بحرارة ايمانه

(١) تارو « طريق دمشق » ، ص ٤١-٤٢ .

(٢) Edward Gibbon, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*. Ed. J. B. Bury, vol. V (London 1898), pp. 156-157.

(٣) ذكر النص سيادة المطران ميخائيل ضويط في مقاله : الموارنة والبطريركية المارونية رابطة الاخويات ، تموز-آب ١٩٥٥ ، العدد ٣١ ، ص ١٥٧ .

فشعت في كل حركة من حركاته واحسَّ بحرارتها كل من اقترب من هذا الشعب المؤمن . فقال احد سيَّاح الفرنج في بطاركته واساقفته : « اساقفة عصيهم من خشب امّا هم فمن ذهب »[1] . وقال احد قصّاد البابا عن البطريرك سركيس الوزي :« ان فيه الصفات النادرة الواجب والممكن وجودها في خليقة ممتازة بالقداسة بحيث خيل اليَّ بأني بين آبا. الكنيسة الاولين »[2] . وفي كنف هؤلا. الرعاة القديسين عاش شعب قديس وصفه دنديني عند منصرم القرن السادس عشر فقال : « انه كان مجتمعاً لا اثر فيه للدعارة ولا يسمع فيه احد شيئاً عن الزنا او الجرائم الجنسية وان النسا. على كثير من الدماثة والاحتشام » . ويزيد دنديني قائلاً : « وهذه نعمة خاصة من الله »[3] . وربَّ معترض يقول انه لا اثر في المكتبات للمجلدات والمؤلفات المارونية التي تبرهن عن عيش هذه المعتقدات فنجيب : « ان الموارنة ، وقد تعرضوا للاحقة العرب واليعاقبة وغيرهم لاقوا ما لاقوا من صعاب على ارض قاسية وعرة المسالك ، لم ينفتح لهم مجال للانصراف الى الادب والفن »[4] .

نعم ليس للموارنة في عصورهم الاولى كتابات يتبع فيها المنطق الفلسفي او الاسلوب اللاهوتي ولكن جلَّ ما في الامر صلوات اتت معبرة عن نفسية شعب بكامله ومبرهنة عن صحة اعتقاد امة ومحافظتها شديد المحافظة على وديعة الايمان التي تسلمت .

فهذا الشعب الذي عاش — كما قلنا — في هذه الجبال عرضة للاضطهاد ما استطاع ان يبقى على الدين القويم ، وما قوي على الصمود مفضلاً سفك دمائه والاستشهاد على التنكر لدينه المسيحي ، لو لم يكن المسيح معه ولو لم يكن في كنائسه المتواضعة البسيطة . ولقد ثبتت « هذه الوردة بين الاشواك » يانعة تسمو وتكبر متحدية الاعاصير لانها مجسد المسيح تغذت ، ومن دمائه شربت .

---

(١) نقلاً عن رابطة الاخويات ، تموز — آب ١٩٥٥ ، العدد ٣١ ، ص ١٧٦ .

(٢) ذكر ذلك في رابطة الاخويات ، تموز — آب ١٩٥٥ ، العدد ٣١ ، ص ١٨٠ .

(٣) «*Voyage du Mont Liban*» par J. Dandini, traduit par A. S. P., ch. XIX, p. 94.

(٤) الرجي: (في الطقس الماروني ؟) نقلاً عن رابطة الاخويات ، تموز — آب ١٩٥٥ العدد ٣١ ، ص ١٧٦ .

ولقد صمدت لا بقوتها بل بقوة « الجمرة اللذيذة الشديدة الاضطرام التي اهبتها كما الهبت الشهداء فتسارعوا الى مجابهة اللهيب »[1] كما جاء في الفرض الالهي.

وكما ان الماروني لم يكتب ويؤلف في موضوع من المواضيع كذلك ايضاً لم يكتب شيئاً في القربان . انما ظهرت حياته القربانية الداخلية في صلوات تنم عن حب شديد للقربان . ولقد تضمن فرضهم الالهي معظم هذه الصلوات التي ترجع في اصلها الى العهود الاولى للكنيسة حسب قول الأب بريدي مستنداً في قوله هذا الى « حقيقة الفرض الماروني الجماعية الشعبية »[2] . وفي هذا قوله ايضاً : « ان فرضنا الالهي هو صلاة الشعب المؤمن الذي اجتمع ليشترك اشتراكاً فعلياً بالصلاة تحت رئاسة الكهنة »[3] . ولا عجب من ذلك فالصفة الجماعية هي صفة ملازمة للطقوس المارونية[4].

الصلاة الجمهورية في العصور الاولى للكنيسة

وهذه الصفة الجماعية هي صورة حية لما كانت عليه الصلاة في اوائل عهد المسيحية . فمنذ العصور الاولى للكنيسة وحتى في ايام الرسل كان المسيحيون يصلون صلاة جماعية يشترك فيها الشعب والكهنة معاً .

ولقد كانت تقتصر اجتماعاتهم على الصلاة الطقسية والقيام بذبيحة القداس. فالقربان كان محور اجتماعاتهم الاسبوعية . ولقد أثرت الاجتماعات اليهودية في هذا المجال كمثال يحتذى به فقط .

فأعمال الرسل يعلمنا ان صلاة الجماعة المسيحية الاولى كانت تدور حول كسر الخبز والاحتفال بالافخارستيا : « وكان الذين تعمدوا مواظبين على تعاليم الرسل والشركة في كسر الخبز والصلوات . ويلازمون الهيكل كل يوم بنفس واحدة ويكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب »[5].

---

(١) ليل الخميس القيمة الثانية حمها – الفرض الماروني .
(٢) ميشال بريدي : الفرض الالهي الماروني : ص ٦٠ ، حاشية عدد ١ .
(٣) ميشال بريدي : الفرض الالهي الماروني : صفحة ٣٢ /٢٠
(٤) يتحلق الأولاد والشباب والكهول في قرية كفرصغاب ، شمالي لبنان، في كل مساء حول قرايتين لمساعدة الكهنة في الصلاة الطقسية .
(٥) اعمال ٢ /٤٤٢ ٤٦–٤٧ .

ولقد جاء في حاشية للأب ميشال بريدي : « ان الصلاة في العهد الرسولي كانت اسبوعية يترأسها الكهنة لان الافخارستيا هو محور الاجتماعات المسيحية »[١].

والتاريخ يعلمنا ان كنائس فلسطين وكيليكيا وكابودكيا وغيرها قد اتفقت جميعها في العصور الاولى لتكريس يوم من ايام الاسبوع يجتمعون فيه ليقيموا الصلاة الطقسية وليكسروا الخبز حيث كان الكهنة المحتفون يصلون مع المؤمنين الى الله ، متضرعين اليه ، مرفقين بعض فقرات من المزامير ، شاكرين المسيح المهم لا بكلمات منتقاة من العهد العتيق بل بأخرى املتها تعاليم الرسل واوحاها تقى المؤمنين . وعلى هذا كانوا يزيدون قراءة مقاطع من الكتاب المقدس وغالباً من اعمال الرسل ورسائل بولس[٢].

وهكذا سميت هذه الصلاة الطقسية صلاة قربانية مسيحية جماعية وذلك لان اجتماع المسيحيين كان ليشكروا الله ويشتركوا بتذكار عشائه السري وقيامته المجيدة . وهكذا فان فعل الشكر الذي كان يشتمل قبل ظهور المسيح على شكر الله نعمه وعنايته الالهية واهتمامه بالبشر ، غدا غنياً بالمعاني المسيحية بعد ظهور الكلمة المتأنس . لان الاعمال الرسولية وفرت له مادة كافية ليأتي مثقلاً بهذه المعطيات الجديدة .

الطقس الالهي والقربان

فمتى تقدم تظهر لنا صلة الطقس بالقربان او قل بذبيحة القداس. فالاجتماعات كانت تدور حول كسر الخبز . فتحيط صلاة الساعات بسر القربان المقدس في الكنائس الغربية والشرقية[٣] . حتى ان الصلاة الكنسية الجمهورية ما كانت لتقام مرة واحدة الا وتحيط من قريب او بعيد بالافخارستيا .

ولم يتوقف المسيحيون الاولون عند صلاة تقال حسب رغبتهم . انما استلهموا في ذلك تاريخ حياة السيد المسيح فعيّنوا منذ العصور الاولى نهار الاحد من

(١) ميشال بريدي الفرنس الماروني – صفحة ٦ حاشية عدد ٢ . راجع فهرس مجموعة النصوص القربانية الاولى – مدريد – الجزء الثاني ١٩٢٥–١٩٥٤ تحت كلمة طقسيات ص ٩٥١–٩٥٧ .

(٢) بريدي ص ١٨ / ٤ والحاشية .

(٣) J. Gasper, *Ms. D.* 1950, nº 21, p. 82.

الاسبوع لاجتماعاتهم . وذلك لان المسيح يذكرهم بانتصار سيدهم ومعلمهم على الموت ويؤكد لهم انتصارهم على الموت وقيامهم قيامة ممجدة . فتعليم الرسل الاثني عشر يخبر «ان الرسل قرروا تكريس نهار الاحد للصلاة الطقسية ولقراءة الكتب المقدسة وللتقدمة — الافخارستيا — لان المسيح قام من بين الاموات وصعد الى ابيه السماوي نهار الاحد »[1].

ويثبت لنا من التقليد المسيحي ان الاحد هو نهار السيد المسيح وعيد قيامته الذي له علاقة وثيقة بالافخارستيا اذ بالقيامة والصعود بلغت الذبيحة الذروة . فالمسيح ذاته قد ربط القيامة والحياة الابدية بأكل جسده اذ قال في خطابه في كفرناحوم : « من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية وأنا اقيمه في اليوم الاخير . انا الخبز الحي الذي نزل من السماء . ان اكل احد من هذا الخبز يحيا الى الابد » .

اما وقت الاحتفال بالصلاة كان على ما يظهر باكرًا اي في الربع الاخير من الليل يتبعه الاحتفال بالافخارستيا حتى انه لا يبزغ الفجر ويصيح الديك الا وانتهى كل شيء ؛ وعلى هذا المنوال كانت تقام حفلة نهار الاحد[2] . ويثبت هذا قول للحاكم « Pline le Jeune » في احدى رسائله الى الامبراطور «Trajan». ولقد اتى فيها ان من عادة المسيحيين اجتماعهم في يوم معين قبل الفجر وترتيلهم مناوبة انشودة للمسيح » .

وهكذا يتبين ان هذه الاجتماعات الصبحية كانت تقام نهار الاحد وفي بقية الايام التي يحتفل بها « بكسر الخبز » . ولكن ما هي الصلوات التي كانت تؤلف الفرض الالهي آنذاك ؟ هل كانت مغايرة للصلوات القربانية ؟

ان اجتماعات اليهود للصلاة كانت تقتصر على سماع قراءات وترانيم مزامير مأخوذة من كتبهم المقدسة . وغالبًا ما انتهى الاجتماع بتفسير لاحد المقاطع المقروءة . وفي العصور الاولى للكنيسة حافظ المسيحيون الاولون على حضور احتفالات اليهود مع القيام بصلوات واجتماعات قربانية خاصة بهم كما قلنا سابقًا.

(١) F. Nau, *La Didascalie de douze Apôtres*, 1912, p. 225/7.

(٢) Jungmann, *Missarum Sollemnia*, t. I, p. 41.

وما تفرد المسيحيون بهذه الصلوات وحدها دون سواها الا لما حصل الانفصال الفعلي بين اليهود والمسيحيين وذلك حوالى السنة الرابعة والاربعين[١] . اكن المسيحيين تأثروا باليهود فأخذوا عنهم منهاج الصلاة زائدين على قراءة كتب الشريعة والانبيا، قراءة العهد الجديد واعمال الرسل وعظة مستوحاة من القراءة. فكانت هذه الاقسام الاربعة النواة التي كونت فرضنا الطقسي من جهة والقسم الاول من قداسنا من جهة ثانية وهو القسم الذي يدعى ما قبل الذبيحة[٢] . ومنذ القرن الرابع ظهرت هذه القراآت في كنيسة انطاكية مضمومة الى القسم الذي يكوّن الذبيحة او التافور[٣] .

ولقد كانت هذه الصلاة الاستعدادية مستقلة في بادئ الامر الاستقلال التام . فكانت تصلّى في كنيسة وتقام الذبيحة في كنيسة اخرى . وهذا ما كان يحصل في اورشليم وافريقيا حوالى اواخر القرن الرابع[٤] . ويخبر عن دير القديس « Sabbas » في اورشليم حيث كان يسكن معاً رهبان ينتمون لجنسيات مختلفة ان هؤلاء كانوا يحتفلون بما قبل الذبيحة في كنائس مختلفة وكل بحسب لغته الطقسية : الغريغورية والسريانية واللاتينية . ثم كانوا يجتمعون الاحتفال سوية بذبيحة القداس وذلك باللغة الطقسية اليونانية[٥] . ويخبر «Hanssens» انه حوالى السنة ٦٠٠ كانت بعض الاديار تهمل القراآت المقدسة لانهم كانوا يصلونها في غير وقت[٦] . فيستنتج اذاً انهم كانوا يتركون ما قبل الذبيحة .

الفرض الماروني والقداس

ولا يستغرب ان تزول الصلوات الجهورية الى تأليف قسم ما قبل الذبيحة فيأتي نظام هذا القسم وترتيبه شبيهاً كل الشبه بنظام وترتيب فرضنا الالهي . وبالفعل فمن اقام المقابلة بين «الفرض» وبين « ما قبل الذبيحة » رأى ان اوجه

(١) Jungmann, *Missarum Sollemnia*, t. I, p. 43.

(٢) Dom F.-J. Moreau. *Liturgies eucharistiques*, 1924. pp. 40 31.

(٣) Jungmann, *Missarum Sollemnia*, t. I, pp. 62.

(٤) Étiérie, *Journal de voyage*, dans *Sources Nièmes* XXI. pp. 199 sq.

(٥) Typicon de S. Sabbas (*Hanssens Institutions*, t. II. p. 6 sq.).

(٦) Hanssens, *Institutions*. t. II, p. 5 sq.

الشبه جلية بينهما . ومن اقام المقابلة بين الفرض الالهي الماروني والقداس وجد كيف ان الافكار التي تؤلف الثافور هي موجودة وان مثلثة في الفرض الالهي

يقول «Jungmann» ما خلاصته[1]: « كما يؤلف جسد المسيح ودمه ثواة الذبيحة هكذا تكوّن القرآآت المقدسة الموضوع الاساسي لما قبل الذبيحة . فالذبيحة والكتاب المقدس هما كنزا الكنيسة اللذان عليهما يتوقف خلاص الجنس البشري . وكما ان المسيح بدأ رسالته بالتعليم قبل ان يؤسس مملكته هكذا وجب ان تملأ كلمته ارواحنا قبل ان نقتبل من جديد العهد الجديد . ولكن لمّا كان ما قبل الذبيحة مستقلًا عن الذبيحة نتساءل اذا كان هذا القسم قد تعدّى تأثيره القرآآت وعمل عمله في تكوين القسم الذي يلي القرآآت ؟ فيجيب «Jungmann» على سؤاله بأن القضية واضحة فيما يختص بالطقوس الشرقية فان صلوات كانت تتبع القرآآت منتهية بصلاة المؤمنين او ما سمّاه بعضهم قداس المؤمنين .

ولا بدّ لنا بعد هذا الّا ان نعطي الآن موجزًا عمّا تشتمل « ما قبل الذبيحة » . فهذه الرتبة الاستعدادية التي كان يحضرها المؤمنون والتائبون والموعوظون تشتمل على اناشيد وطلبات وقرآآت تتضمن في قداسنا فرضين . يقول «Jungmann» ان من خواص « ما قبل الذبيحة الشرقي ادخال صلاة فرضية قديمة عليه »[2]. فكل من هذين الفرضين يبدأ بالسجود للثالوث (قدوس الله قدوس القوي . . .) وتمجيده (المجد للآب والابن والروح القدس . . .) وبعد ذلك يدعو الشماس الشعب الى التوسل الى الله من اجل حاجات الكنيسة والشعب المسيحي (من اجل امان وسلام العالم كله . . .) ثم يتلو الكاهن صلاة الافتتاح طالبًا له وللشعب حسن القيام بالخدمة المقدسة فينشدون معًا « مزمور — بالمعنى الشامل — المجد لله في العلى » في الفرض الاول و « ارحمني يا الله » في الفرض الثاني ويتلو الكاهن « الحماية » او صلاة الغفران التي تختلف باختلاف الايام والاعياد . انما احتفظ « للسيدة » بهذه الحماية في الفرض الاول واما في الفرض الثاني فهي لا تزال على ما كانت عليه مختلفة اختلاف الايام والاعياد

(١) JUNGMANN. *Missarum Sollemnia*, t. II, pp. 153.

(٢) JUNGMANN, *Missarum Sollemnia*, t. II, p. 8.

وهي ما نسميه « افراميات » . وبعد صلاة الغفران يرتل الخادم نشيداً للسيدة في الفرض الاول والثالوث «قدوس الله » في الفرض الثاني تليه « صلاة المطر » سرية في الفرضين الاول والثاني .

وبعد هذه الطلبات والنشائد كان يقرأ على المؤمنين فصولاً من الكتاب المقدس بعضها من العهد العتيق والبعض من العهد الجديد احتفظ منهـا بقراءة فصل من رسائل القديس بولس وبفصل من الانجيل .

والفرض الالهي في جميع ساعاتـه يتبع هذا الترتيب مما يجعلنا نتساءل اذا كان الموارنة يصلون الفرض الصباحي ويبدأون تواً بالنافور تركيين القسم الذي يؤلف « مـا قبل الذبيحة » على جهة ام انهم كانوا يصلون صلوات الصباح وصلوات الرتبة الاستعدادية ثم النافور ؟ سؤال يصعب علينا الاجابة عليه لاننا نفتقر الى المراجع والمصادر التي تكاد تكون معدومة .

وتسهيلاً لاستنتاج اوجه الشبه بين الرتبة الاستعدادية من جهة وترتيب اية ساعة من ساعات الفرض الالهي وبين صلوات النافور القربانية من جهة ثانيـة وصلوات الشحيمة سنعرض ذلك في لوحتين .

ما قبل الذبيحة		الفرض الماروني
الفرض الأول	الفرض الثاني	مساء الاثنين
السجود للثالوث (قدوس الله قدوس القوي . . .) تمجيده (المجد للآب . . .)	السجود للثالوث (قدوس الله قدوس القوي . . .) تمجيده (المجد للآب . . .)	السجود للثالوث (بهوا مصحوبو حكمة معنا) تمجيده (المجد للآب . . .)
صلاة الافتتاح (اهلنا ايها الرب الاله . . .)	صلاة الافتتاح (اهلنا ايها الرب الاله . . .)	صلاة الافتتاح(اهلنا ايها الرب الاله)
مزمور (المجد لله)	مزمور (ارحمني يا الله)	مزمور (المجد لله)
صلاة الغفران (الحساي)	صلاة الغفران (الحساي افراميات)	صلاة الغفران (الحساي)
صلاة المطر (اننا نذكر)	صلاة المطر (ايها الرب القدوس)	صلاة المطر (اهلنا ايها الرب الاله ان نكون لك بخورات)
مزمور (في المعنى العام)	مزمور (في المعنى العام)	مزمور (في المعنى العام)
		ثلاث قراآت من العهد العتيق
		قراءة من اخبار الرسل
قراءة الرسائل	قراءة الرسائل	قراءة الرسائل
قراءة الانجيل	قراءة الانجيل ..	قراءة الانجيل

التناقور

العملوات القربانية

- استجبني يا رب وليأت روحك القدوس ويحل علي وعلى هذا القربان .
- اقبل ايها الختن هذه الذبيحة التي نقدمها لك اولاً من اجل بيتك... والدنا والبطريرك والاساقف والموتى والشهداء.
- بما من قدم ذاته لأبيه فكان حملاً ذبيحاً وحبراً مقرباً .
- يا أبا الحق .
- المجد للآب الذي قدس وللابن الذي غفر وللروح القدس الذي حل .
- بارك اللهم الكسر وبارك الأرض التي اخذت منها .
- اهل يا رب يدي ان تكسرا جسدك وتوزعاه بالايمان .
- مبارك انت يا ربنا يسوع المسيح الخبز الحي .
- اشركنا اللهم في ملكوتك السماوي كل من اشترك معنا في هذا القربان .
- وحدنا يا رب لاهوتك وناسوتنا ...

ما يقالها في القربان الماروني

- الشكر للروح القدس الذي حل على ذبائحهم (ليل الجمعة والاربعاء القومة الثالثة حتى).
- اقبل يا رب قرباننا مرضية للاهوتك ولأجل بيتك وكهنتك ولذكرانك... ولأجل عظمائك الانبياء والشهداء...
(ليل الاثنين القومة الرابعة صوتا) .
- يا حمل الله الحي الذي كسر حسد واطعم الشعوب (الثلاثاء الساعة السادسة قدام صم)
- يا ابا الحق (الخميس الساعة الثامنة حتى)
- المجد للآب ... والشكر للروح القدس الذي حل (ليل الجمعة والاربعاء القومة الثالثة حتى).
- بارك يا رب رأس السنة واحفظ غلات الارض (ليل الاثنين القومة الرابعة صوتا).
- والكهنة يوزعون جسد ابن العذراء (صباح الاثنين ، النشيد الرابع . البيت الثاني عشر) .
- منك يا مريم جاءنا خبز الحياة (صباح الاربعاء. النشيد الثاني) .
- اجعل يا رب راحة سعيدة وقيامة مجيدة للمشتركين بشركة جسدك ودمك (ليل الاثنين القومة الرابعة صوتا).
- امتزجنا بك وانت امتزجت بنا (الماء الخميس الصلاة الثانية) .

بعد كل ما بيّنا لا غرابة اذا كان موضوعنا « القربان في القرض الماروني » لا سيما بعد ما رأينا ما هنالك من شبه وقرابة بين القداس والقرض . اما غرضنا فهو ان ندرس كل ما ورد في القرض وله علاقة في القربان . انما يجب ان نعلم ان ليس في الامر ناحية ندرسها وحدها . غايتنا هي ان نرى كل ما يقال حول القربان في قرضنا الاسبوعي « الشحيمة » .

اقول في قرضنا الاسبوعي « الشحيمة » كي انبه ان درسنا لا يشمل القربان في « الشحيم » كتاب القرض الرهباني ولا كتاب الاعياد « المتعيّد » تاركين ناحية القروض المختصة « بعيد الجسد »[1] و « قلب يسوع »[2] و « خميس الاسرار »[3] .

ويجب ان نعلم ايضاً ان ليس في الشحيمة درس لاهوتي في موضوع القربان بكل ما تحوي كلمة درس من معنى . لا منطق يوجد في القضية ولا اسلوب يتبع . هنالك صلوات اتت عفو الخاطر معبرة عن نفسية قربانية . هي نفثات تصعدها نفس شعب مع كل طلوع فجر ، وعند كل غروب شمس . ومتى طلب الله من الشعب ان يكون منطقياً في صلاته او ان يتبع اسلوباً ؟.

انا اذا جمعنا شتات ما يقال في القربان وجدنا انه من الممكن ترتيب هذه النصوص حسب تصميم نتبعه فنتكلم اولاً عن الذبيحة كلمة ومعنى وفاعلية . واذا كان لا بد من ذبيحة فنتكلم عن اقسامها : التقدمة والضحية . ثم عن ثمارها الناتجة عن المناولة ثم تكفير وطلب سجود وشكر . واخيراً نرى كيف ان القربان هو ينبوع حياة في هذه الدنيا وفي الآخرة[4] .

الذبيحة

الانسان في طبيعته متدين . وما الدين الّا عبادة بها نخضع لله ونسلم

(١) صلاة عيد القربان المقدس للعلامة جرمانوس فرحات . نشرها الآبائي يوسف حبيقة بمناسبة المجمع القرباني في فلورنسا .

(٢) صلاة عيد قلب يسوع نشرها المطران اغريس بالمطبعة المارونية في حلب ١٩٢٤ .

(٣) راجع الكتاب المختص بأسبوع الآلام (كتاب الجناس) .

(٤) يجب ان نلفت النظر على ان المراجع في هذا الدرس تكاد تكون معدومة . لذا لجأنا الى قراءة بعض الكتب التي لا صلة غير مباشرة بموضوعنا حتى نلم شعثها نتمكن من فهم الموضوع وطرقه .

انفسنا لمشيئته . لانه هو خلقنا ومن فيض محبته اعطانا وما نحن وكل ما نملك الآ هبة من جوده ومحبته . لهذا لا يحق لنا ان نتصرف بانفسنا وبكل ما نملك الآ حسب امره ومشيئته القدوسة . وان فتشنا في التاريخ وجدنا ان خلاصة العبادة هي الذبيحة وذلك عند جميع الاديان . لقد كان الفينيقيون يجتمعون في وقت معين من السنة في « أفقا » حيث كان هيكل لآلهتهم . وكانوا يقدمون احد اولادهم للكاهن فيقدمه هذا ذبيحة لارضاء «بعل» الاله وذلك بأن يرمي الولد في جوف ثور نحاسي تتضطرم فيه النار بينما يضج الشعب في الخارج لئلا يسمع الاله صراخ الولد فلا يعود يرضى بالذبيحة . وحصار صور وخرابها كان سببه ان الصوريين لم يرضوا ان يقدم الاسكندر ذبيحة لالههم « ملقارت ». وذلك لان الاسكندر ليس كاهناً لهذا الاله، وذبيحته التي يريد ان يقدم ليست باسم الشعب[1] . ويقال ان الله كان يرضى بالذبائح .

وبالفعل فقد رضي الله بذبائح العهد العتيق . رضي ذبيحة هابيل التي قدمها له من بواكير ارضه ومن تعب يديه وعرق جبينه ، وقبل ذبيحة ابرهيم وجعله اباً لامم كثيرة وكان قد طعن في السن ، ولذت له ذبيحة هارون فرفع الطاعون عن اسرائيل وهكذا يقول الكاهن في ابتداء القداس الماروني « يا من قبل قرابين هابيل في الحقل ونوح في السفينة وابرهيم على رأس الجبل . . . اقبل هذه القرابين. . . »[2] .

ولكن الله لم يكن ليسرّ بدم الابرياء وبلحم الكباش والعجول فهذه يقدمها الانسان فداء عن نفسه معبرة عن استعداده لتضحية ذاته وكل ما يملك لله الخالق الوهّاب . وظلّت هذه الذبائح صورة وشكلاً حتى تلك الليلة العجيبة، ليلةَ الحب الذبيح ، ليلة العشاء السري حيث صارت الرموز حقيقة والصور حياة وهذا ما يريد ان يقوله الكاهن في صلاته هذه: « بك كانت العجائب المجيدة والمعجزات الباهرة يا مبطل جميع الذبائح »[3] . ولكن ما معنى كلمة ذبيحة هنا ؟ .

(١) بليبل : تاريخ لبنان العام — الجزء الاول .
(٢) القداس الماروني — صمدة الاسرار .
(٣) الجمعة الساعة السادسة مساءً

ان هذه الكلمة ترد مراراً في القرض الالهي واما معناها والمقصود منها فلا نفهمه الا اذا حددنا معنى الكلمة واصلها .

اما اصل الكلمة فيرجع الى فعل «זבח» العبراني والذي معناه ضحّى ، وذبح ، وكرس الشيء لله . و«ذبحكم» او«ذبحنا» معناها الذبيحة والضحية .

وكلمة ذبيحة في قرضنا الماروني لا تحمل معنى واحداً في كل المواضع فهي: ذبيحة ، وتقدمة ، وقربان ، وضحية ، ونار وروح ؛ مع العلم ان تعدد الاسماء لا يغير شيئاً في الجوهر كما سنرى .

اما غاية التجسد فكان الصليب كما يبدو من احد النصوص حيث يقول الكاهن ما ترجمته : « ليته يأتي في المرة القادمة كما اتى ليصلب في المرة الاولى ، لانه جاء اولاً وكان ذبيحة عن الخطأة »[1] وكان الحمل الالهي الذي صار ذبيحة[2] .

اذاً يتبين من هذا النص ان المسيح اتى وقدم نفسه «فكان الحمل والمقرّب، الحمل الذبيح والحمل المقبول »[3] وهو الحمل السماوي صار نفسه ذبيحة وكاهناً »[4] كما يقول القديس افرام . لهذا تشكره البيعة لانه قدم نفسه فداء عنها ولغفران خطايا بنيها صارخة نهار قيامته : « مبارك الذي ذبح نفسه عني ومنحني جسده مأكلاً ودمه مشروباً روحياً غفراناً لي ولبنيّ »[5] .

ولم يقدّم المسيح ذاته الا « ليبطل الذبائح القديمة كلها » التي لم تكن الا صورة وشكلاً ولكي يعطينا عوضها ذبيحة جديدة فيها تصير الرموز حقيقة والصور حياة « لقد كسر جسده ليبطل الظل ويعطينا الحقيقة »[6] اليس هو القائل بلسان كنارة روح قدسه « وعوض الذبيحة الزمنية التي يخدمها الانسان اكون انا مذبحاً وذبيحة وغفراناً »[7] .

(١) ساه الجمعة البيت الثاني حرف ا
(٢) ليل السبت القومة الثانية حرف ا
(٣) لامي : اناشيد ومواعظ القديس افرام ، الجزء الأول ، صفحة ٦٥٣/١١
(٤) لامي : اناشيد ومواعظ القديس افرام ، الجزء الأول ، صفحة ٥٧٥
(٥) سحر الأحد ، النشيد البيت الاول .
(٦) لامي : الجزء الاول ، صفحة ٦٢٣/٧
(٧) لامي : الجزء الاول ، صفحة ٣٧٩/٢١

ولكن الربَّ لم يكتفِ بهذا بل اراد ان تمثل ذبيحته هذه في الكنيسة بشكل سري وعلى مر الزمن حتى يتسنى لكل انسان ان يجني ثمارها الروحية. لكن من يقدم هذه الذبيحة ؟ يقدمها اولئك الذين اعطاهم السلطان وخولهم على اسراره بقوله لهم : « اصنعوا هذا لذكري » . يقدم الذبيحة « اولئك الكهنة الذين اختارهم ابن الله ليخدموه فتقدمه ايديهم ذبيحة كفارة ، وتوزعه اصابعهم جسداً ودماً حيًّا ، ويزيحه فمهم نقيًّا هاتفاً قدوس »[1] . وبهذا السلطان المعطى له يقف الكاهن كل يوم على المذبح يقدم الذبيحة غير الدموية التي مقدمها وضحيتها يسوع المسيح ، ومقربها وقربانها يسوع المسيح . يقدم الكاهن الذبيحة حاملاً ابن الله بين يديه ، مقدماً اياه لأبيه ذبيحة عن خطايانا ، محملاً اياه ذواتنا بكل ما فيها من افراح واتراح وكل ما تكنه قلوبنا من الم وابتهاج قائلاً : « يا ابا الحق هذا ابنك ذبيحة ترضيك فأرضَ عنا لأن التقدمة والذبيحة اعظم من الذنوب »[2].

وهكذا فالذبيحة المعنية هنا هي ذبيحة الابن الذي قدم ذاته لابيه ذبيحة عنا وكفارة عن خطايانا . وهي ذبيحته مقدمة على ايدي الكهنة الذين سلمهم ان يخدموا اسراره .

ولكن مما تؤلف الذبيحة؟ هل يتكلم في الشحيمة عن التقدمة والضحية؟ واذا كان الجواب بالايجاب هل هما قسمان مستقلان عن بعضهما ؟ ام يؤلفان قسماً واحداً غير منقسم ؟ وبكلام اجلى هل من فرق بين الذبيحة كتقدمة والذبيحة كضحية ؟ .

الذبيحة : تقدمة وضحية

قبل ان نبدأ بالجواب لا بدَّ لنا من نظرة لنرى اذا كان هناك كلام يدل على التقدمة والضحية في الفرض الماروني. اننا نجد كلمتين: «ܩܘܪܒܢܐ» ومعناها التقدمة ، العطية ، و«ܕܒܝܚܐ» ومعناها ايضاً العطية مع العلم ان كليهما يعنيان الذبيحة ايضاً . ان « Brun » يترجم «ܩܘܪܒܢܐ» par oblatio, donum. ويترجم «ܕܒܝܚܐ» Sacrificium, eucharistia par oblatio, halocaustum .

(١) ليل الجمعة والاربعاء – القوبة الثانية حمحا

(٢) الخميس الساعة التاسعة : يا ابا الحق .

فاذا رجعنا الى النصوص رأينا ان الكلمتين تدلان على التقدمة والعطاء. « فأيدي الكهنة تقدم الذبائح »[1] بينما صوتهم يصرخ عالياً نحو الآب السماوي: « انظر يا الله الخطايا وانظر التقدمة عنها . فان التقدمة والذبيحة لاعظم من الذنوب » وهكذا كما كان كهنة الناموس يقدمون الذبائح لله باسم الشعب المختار كذلك لا يزال كهنة العهد الجديد ، كهنة البيعة يقدمون لله الذبيحة الحقيقية باسم الشعب والكنيسة .

انما تظهر التقدمة جلية ويكمل وضوح عندما تطلب الكنيسة من الله « ان يبارك السنة بنعمه ومراحمه وان يحفظ غلات الارض بكلمة نعمته فتقدم القرابين على مذابحه والبواكير في هيكله »[2] . وهذا ما يقوله الكاهن في « صمدة الاسرار » عندما يأخذ الخبز بيديه قائلا : اقبل ايها الاله العظيم العجيب ابدا قرابين عبيدك هؤلاء التي انتقوها وحملوها الى هيكلك حباً لك ولاسمك القدوس».

وكما ان للتقدمة كلمة ونصوصاً مختصة بها دون سواها فالضحية لها ايضاً معناها بالسريانية ونصوصاً تتكلم عنها . اما التعبير عنها بالسريانية فهو بالاسم الشامل «ܩܘܪܒܢܐ» و«ܕܒܚܐ» ومعناها كما قلنا الذبيحة والضحية. فعلى الصليب وفي القداس اعطانا ابن الله جسده ودمه وذبح نفسه وضحّى بها في سبيل كنيسته »[3] .

يقول الكاهن في القداس : « يا أبا الحق هذا ابنك ذبيحة مُات لاجلي »[4] والكنيسة تهنئ نفسها لان العروس خطيبها قد اقام وليمة على شرف قداستها واعيادها . اعدَّ لها فيها مذبحاً مقدساً طاهراً وضع عليه جسده ودمه[5] وقدم لها مرعى خصباً دسماً ومشرباً لا يعطش شاربوه ومن شدة فرحها تنادي ذاتها قائلة :« تقدمي وكلي في الخبز ناراً واشربي في الخمر روحاً »[6].

وهي تصلي متضرعة من اجل ابنائها طالبة من الحمل الالهي ان يصغي الى

(١) ليل الجمعة والاربعاء – القومة الثالثة صحة
(٢) ليل الاثنين ، القومة الرابعة صحوا
(٣) نهار الاحد ، النشيد صحة
(٤) الخميس الساعة التاسعة صحة
(٥) نهار الأحد ، النشيد صحصا
(٦) نهار الاحد ، النشيد أصحة

تضرعاتها ويستجيب ادعيتها فيخفف من آلامها ويزيد من افراحها ، يمحو آثامها ويبيّض قلوب بنيها ويطهرها مستحلفة اياه « بدمه الذي سفك على الجلجلة »[1] و « بحق الحربة التي ثقرت جنبه فوق الجلجلة على الصليب »[2] مذكرة اياه « انه هو حمل الله الحي الذي تكلم من على الصليب »[3] وهو يقدم ذاته لابيه كي يرضى عنا .

تقدمة وضحية . ذبيحة على الصليب ، وذبيحة على المذبح . الابن يُقدَّمُ على المذبح ، ودمه اهرق على الجلجلة . ازاء هذا كله لا بدَّ لنا من التساؤل اولًا اذا كان هناك فرق بين التقدمة والضحية وثانياً اذا كان يوجد علاقة بين ذبيحة الصليب وذبيحة القداس ؟.

طبعاً لم يطرأ السؤال على بال من جَمَعَ نصوص « الشحيمة » . ولكن يخيل لقارئ « الشحيمة » ان التقدمة شيء والذبيحة شيء آخر . ألا يقول يقول الكاهن ان التقدمة والذبيحة لاعظم من الذنوب بما لا يحد ؟ هذا في الظاهر اما الحقيقة هي ان الاثنين واحد . فالتقدمة هي رمز للذبيحة وصورة ، والتقدمة هي الآن ذبيحة بالقوة وقد تصبح بعد دقائق معدودات ذبيحة حقيقية حية بالفعل . وكثيرًا ما يسمي الموارنة التقدمة ذبيحة ، والذبيحة تقدمة . ألا يقول الكاهن في بدء القداس : « اقبل يا رب هذه القرابين التي تقدم لك على يديَّ » وأيضاً « في كأس الخلاص هذا اصب الخمر رمز الدم الذي جرى لنا من جنب ابنك الحبيب » ، وايضاً في الفرض الاول من القداس: « اننا نذكر ربنا والهنا وكل سيرته الخلاصية لاجلنا على هذه التقدمة الموضوعة امامنا » . وفي الفرض الطقسي قبل ذكر الكلمتين — ذبيحة وتقدمة — في يا ابا الحق تصلي الكنيسة قائلة :« انظر يا ابا الحق الخطايا وانظر التقدمة عنها » . فهذه التقدمة ما هي الا ابنه الحبيب الذي صار ذبيحة ليرضيه . وهذه التقدمة هي الحمل الذبيح الذي مات لاجل البيعة فيغفر لها به ولا يذكر خطايا ارتكبها ابناؤها امام عظمته . ففي قسم « ما قبل الذبيحة » يسمي الكاهن التقدمة

(١) الخميس الساعة التاسعة حد١١
(٢) ستار الجمعة — النشيد — البيت الرابع .
(٣) الثلاثاء الساعة السادسة ف٥٥صح

« ذبيحة » . وفي النافور يسمي الذبيحة « تقدمة » . والشيء ذاته نجده في الفرض الالهي .

من هنا نستنتج ان التقدمة والذبيحة هما شيء واحد .

وكما يبان لقارئ « الشحيمة » ان لا علاقة بين التقدمة والذبيحة هكذا يبان له ايضاً ان لا علاقة بين ذبيحة القداس وذبيحة الصليب . وبالفعل كما قلنا سابقاً ليست الشحيمة سوى مجموعة صلوات لا يراد من ورائها تعليم لاهوتي ولكن من يجمع شتات الجمل التي تأتي على ذكر ذبيحة القداس والتي تأتي على ذكر ذبيحة الصليب يستنتج ان العلاقة بينهما اوثق مما يظهر .

ففي صلاة يا أبا الحق التي شغلتنا في هذا القسم من دراستنا يقول الكاهن على المذبح وفي فرضه : « يا أبا الحق هذا ابنك ذبيحة » وهذه هي ذبيحة القداس . ولكنه يتبع هذا القول بقوله : « اليك دمه مسفوكاً على الجلجلة لخلاصي وهو يشفع لي اليك » وهذه هي ذبيحة الصليب .

ولكن هل هناك ذبيحتان ؟ كلا بل ذبيحة واحدة . فقدم ذبيحة القداس ومقربها هو يسوع المسيح لان الكاهن يقدس بقوة « من ذبح نفسه » لذا تقول الكنيسة «السجود للابن الذي علم كهنته واختارهم ليخدموا اسراره»[1]. وضحيتها وقربانها هو يسوع المسيح « يا ابا الحق هذا ابنك ذبيحة ترضيك... خذه قرباناً من يدي» .

ومقدم ذبيحة الصليب ومقربها هو المسيح «الذي كسر جسده على الصليب واطعم الشعوب[2] . والذي عجن اليهود خمره على اعلى الصليب »[3]. وضحيتها وقربانها هو المسيح « اذ ان الدم المسفوك على الجلجلة هو دم الابن الذبيح».

اذاً ذبيحة واحدة لان الكاهن واحد والقربان واحد وان كانت على الصليب دموية وعلى المذبح غير دموية .

لقد شاهدت الكنيسة الشهداء يقدمون على الموت غير هيابين . قدموا نفوسهم ذبائح مرضية للحمل الالهي دون تردد . شاهدوا السيوف وما ارتعدوا،

(١) ليل الجمعة والاربعاء – القومة الثالثة صفحة
(٢) الثلاثاء الساعة السادسة صفحة
(٣) الجمعة الساعة السادسة صفحة

والنار المتقدة وما خافوا بل قدموا اعناقهم للذبح واعضاءهم للتقطيع وما ذاك الا لانهم « شربوا من الخمرة التي اريقت على الصليب »[1].

فالشهداء المباركون لم يكونوا واقفين عند اقدام الصليب حتى يشربوا من الدم الذي اريق على الجلجلة ، ومن الخمرة التي عصرت على الصليب انما هم تناولوا من ذبيحة القداس ، وشربوا من خمرة القداس من الخمرة التي قدموها ليسوع فسقاهم بدلها دمه . ولما كانت الذبيحة واحدة قالت الكنيسة انهم شربوا من الخمرة التي اريقت على الصليب والتي عصرها اليهود على الصليب .

انما كيف تحولت هذه الخمرة التي قدمها الشهداء للمسيح فسقاهم اياها دمه. والخبز الذي قدموه له كيف صار جسده ؟ كيف تحول ؟ هذا ما سنتكلم عنه وعن حضور المسيح حقيقة في القربان .

الاستحالة الجوهرية والحضور الحقيقي

كما قلنا ورددنا ليس في الامر دراسة لاهوتية . اننا لا نجد تحديداً لمادة السر وصورته ولا كيف تصير الاستحالة او ماذا يبقى بعد الاستحالة . انه لم يخطر على ذهن المصلين كيف تقوم الاعراض بذاتها وقد تحول جوهرها حتى اننا لا نجد كلمة في الشحيمة تدل على الاستحالة . ولكن اذا كانت الكنيسة ما فكرت في ذلك تفكيراً عقائدياً واذا كانت الظروف التي رافقت الشعب الماروني واحوال الزمان التي عاشها لم تحمله على هذا التفكير بالعقيدة فانه كان يحياها ، انه كان يعيشها .

نعم لم يفكر الموارنة اذا كانت الاستحالة سطحية ام جوهرية ويا لوع عجائبي غريب ! ذلك لا يتبين من صلوات قرضهم . انما الذي يظهر هو ان الاستحالة الجوهرية موجودة ضمناً في هذه الصلوات .

ففي القرض الماروني نقرأ :« كسر جسده واطعمهم »[2] . اذا رجعنا الى معنى « كسر » بالسريانية رأينا ان الفعل يستعمل « لكسر الخبز » ومن ثمّ اخذت معنى كسر الجسد . « كسر جسده واطعمهم » هذا هو كلام السيد

(١) مساء الجمعة – النشيد الأول مقطع
(٢) الثلاثاء الساعة السادسة قرض صغير

المسيح ليلة العشاء السري[1]. فالكسر حصل على الخبز الذي استحال واصبح جسد المسيح بعد ان قال السيد: « هذا هو جسدي » ألا يقول يعقوب السروجي بهذا المعنى في الميمر الثالث والستين عن آلام المسيح « ان ربنا قسّم جسده بيديه على المائدة فمن يجسر ان يقول الآن ان ذلك ليس جسده ».

اذًا الجوهر هو جسد المسيح واستعمل فعل « كسر » لان العوارض ثابتة تراها وتلمسها. الشكل شكل خبز ولكنه خبز حي. ألا تصلي الكنيسة لمريم العذراء قائلة: « منك يا مريم جاءنا خبز الحياة واكله آدم وقام حيًا من الموت »[2].

ان آدم هنا هو الانسان الذي افتداه المسيح بدمه. وقيامة آدم هذا حيًا من الموت ليست مفعول الخبز بل هي تحدث لان هذا الخبز هو « خبز الحياة »، هو جسد المسيح. له هيئة الخبز وشكله ولكنه في جوهره جسد المسيح بل هو المسيح الذي قال: من يأكل جسدي ويشرب دمي له الحياة الابدية. وايضًا انا الخبز الحي الذي نزل من السماء. ان أكل احد من هذا الخبز يحيا الى الابد ».

ولشدة ايمانها بقوة الكلام المحوّل «هذا هو جسدي» الذي يردده الكاهن على المذبح تؤدي الكنيسة « السجود للابن الذي علم كهنته ان يخدموا اسراره »[3]. فما معنى « خدم السر » بالسريانية وما هي هذه الاسرار ؟. ان فعل «خدم» هو « ܫܡܫ » بالسريانية والذي معناه قدّس ايضًا. والاسرار هي بالسريانية «ܪܙܐ» بنوع شامل و « افخارستيا » بنوع خاص. فاذا كانت هذه الاسرار مقدسة فلماذا السلطان للكهنة حتى يقدسوها ؟ واذا لم تكن مقدسة فهي اذًا « خبز وخمر » والسلطان اعطي للكاهن فقدسها وغدت «جسد المسيح ودمه » جسد ودم وزعته اصابع الكهنة كما تنشد الكنيسة في ذات الطلبة.

وتظهر الاستحالة قوية في هذه الجملة التي يغبط بها الكاهن الكنيسة على

(١) ١ كور ١١ /٢٥ ؛ لوقا ٢٢ /١٩
(٢) صباح الأربعاء – النشيد الثاني ، البيت السابع.
(٣) ليل الجمعة والاربعاء – القومة الثالثة حدها!

الوليمة التي اعدها لها العروس خطيبها مقدماً لها فيها مرعىً خصباً ودسماً ، مازجاً بحفلها مشرباً لا يعطش شاربيه وداعياً اياهـا : « تقدم وتأكل في الخبز ناراً وتشرب في الخمر روحاً »[1] .

فالمأكل المقدم هو خبز فيه نار والمشرب هو خمر فيه روح . هل يمكننا ان نسمي هذا استحالة ؟ وما هي هذه الاستحالة الغريبة ؟ امن الممكن ان يكون يسوع ناراً ؟ كيف تحول هذا الخبز الى النار والخمر الى الروح ؟

من الاسماء التي تطلق على الافخارستيا هي كلمة «الجمرة» « ܓܡܪܬܐ ». يقول الكاهن في القداس الماروني قبل الرفعة الاولى : « لقد آمنا وقدّمنا هذا القربان واننا لنختم بهذه الجمرة السرية كأس الخلاص والشكران ». وفي نافور القديس يوحنا مارون يقول الكاهن : « انت هو الجمرة التي تبيد النار » وفي موضع آخر : « ليكون لهم جسدك ودمك جمرة تتلف جمر الخطيئة واننا نجد هذه الكلمة عند آباء السريان الذين لفرضنا الماروني علاقة بهم . فيقول يعقوب السروجي : ان الجمرة التي ادناها الملاك من فم اشعيا انما هي مثال للجوهرة الموضوعة هنا على المذبح . هـذه الجمرة لم يكن ممكناً اكلها ولا مسها ولكن بعد ان ظهرت متجسدة فتؤخذ من على المذبح وتؤكل»[2]. فالجمرة التي تأكلها هي الكلمة التي تجسدت .

« كلي في الخبز ناراً » ان ما تأكله الكنيسة وما تتناوله هو شكل الخبز فيه جسد المسيح . ولكن هل المراد ان جوهر الخبز يحوي جسد المسيح ؟ هل يوجد المسيح والخبز والمسيح والخمر سوية ؟

فيما تقدم رأينا ان القربان يدعى «جمرة » اذاً لقد تحول الخبز الى جسد المسيح — الجمرة — ولكن قوله : « في الخبز ناراً » فانما يريد ان يقول ان الاشكال باقية وهي خبز وخمر انما الاستحالة فقد حصلت فعلاً. فالقديس افرام يضع على لسان المسيح هذه الكلمات : « خذوا كلوا مؤمنين ولا تترددوا لان هذا جسدي ومن اكله مؤمناً اكل به نار الروح الالهي »[3].

(١) ستار الأحد ، البيت الثاني أعد
(٢) الأب لامي : الرسائل المسيحية ت ٢ و وك ١ ١٨٨١ العدد العاشر .
(٣) الرسائل المسيحية ، العدد العاشر ت ٢ وك ١ ١٨٨١ ولامي الجزء الاول صفحة ٤١٧

والقديس افرام لا يكتفي بتسمية السيد المسيح نارًا وروحاً في القربان فقط بل هو بنظره تجسد نارًا وروحاً في احشاء والدته ، واعتمد وهو نار وروح ومن ذلك قوله : « احتجبت بخبزك روح لا تؤكل وحلت بخمرك نار لا تشرب فكانت في خبزك روح وفي خمرك نار ... هاالنار والروح في احشاء والدتك هاالنار والروح في النهر الذي اعتمدت فيه ... في الخبز والكأس نار وروح قدس »[1] .

فالنار والروح التي حلت في احشاء مريم العذراء هو يسوع المسيح . وهذه النار والروح هي ذاتها في الخبز والكأس . اذًا لقد استحال الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ، الى النار والروح[2] . وجوهر الخبز استحال الى جوهر جسد المسيح .

وهذه الاستحالة تبدو لنا جلية بعد تكلمنا عن الحضور الحقيقي في الشحيمة لان الاستحالة الجوهرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحضور الحقيقي .

ان الكنيسة المارونية تؤمن ان المسيح موجود في سر القربان بلاهوته وناسوته تحت اشكال الخبز والخمر وذلك بنوع سري . وليس اكثر من الاستشهادات في هذا المجال .

فالمسيح لمَّا اكل خروف الفصح مع تلاميذه قدَّم لهم جسده ليأكلوه ودمه ليشربوه : « مبارك الذي ذبح نفسه عنهم ومنحهم جسده مأكلاً ودمه مشرباً[3] . ولمَّا دعا الجموع اليه « كسر جسده واطعمهم وبدمه الحي غفر خطاياهم »[4] .

فالمسيح لمَّا قال : « خذوا فكلوا » اعطى جسده للاكل ودمه للشرب هذا الجسد الذي كان قبلاً خبزًا ولكنه الآن تجسد والذي كان قبلاً خمرًا وهو الآن دمه .

ولنا نحن الذين نأتي في عصر غير عصره « اعطانا جسده المقدس لغفران

(١) القديس افرام – العاشرة من قصائده في الايمان .
(٢) يدعى القربان «نارا» عند القديس يوحنا الدمشقي «الايمان الارثوذكسي *I, IV, C.13*»
(٣) متار الاحد ، النشيد ٥٥٥
(٤) الثلاثاء الساعة السادسة فقه٥٥٥

الذنوب ودمه الحي سقانا ليحفظنا »[١] وذلك بواسطة السلطان الذي اعطاه الكهنة . انهم يلفظون ذات الكلام على الخبز والخمر الموضوع امامهم على المذبح فتستحيل الخبز والخمر الى جسد ودم ابن الله وعندما يوزعون الاسرار « فان اصابعهم توزع جسد ابن العذراء ودمه »[٢].

والمؤمن اذا اراد طلباً من السيد المسيح ذكره على انه تناول جسده ودمه [٣] ولشدة ايمانه بوجود المسيح تحت الاعراض يطلب منه ان يؤهله ليتناول جسده ودمه ويستفيد من مناولته هذه . لان من كان غريباً عن ابن الله لا يستفاد من التقدم[٤] .

وهكذا فالمسيح ليلة العشاء السري اعطى جسده مأكلاً ودمه مشرباً . والكاهن على المذبح يوزع جسد ابن العذراء ودمه والمؤمنون يعتقدون شديد الاعتقاد على انهم يتناولون تحت اعراض الخبز والخمر جسد ابن الله الحي ودمه الحي . فالمسيح اذاً موجود حقيقة بلاهوته لان الكهنة احتفلوا بجسد الله [٥] وبناسوته « لانهم وزعوا جسد ابن العذراء .

القربان ذبيحة تكفير ودعوة لجميع الشعوب

لقد قلنا في مجرى حديثنا انه كان للموارنة منذ العصور الاولى حياة قربانية قوية كانت الدافع الاول لصمودهم في وجه الاضطهادات وثباتهم في عقيدتهم وقلنا ان هذه الحياة القربانية الداخلية قد ظهرت في حياتهم الخارجية ولا سيما « الفرض الالهي » كتاب صلاة الكاهن والمؤمنين . وسيثبت لنا هذا جلياً اذا ما رأينا الاهمية التي تعطى للمناولة في «الفرض الماروني» والثمار المرتجاة من هذا السر سر الاتحاد بالله .

لقد رأينا التقدمة واستحالتها الى جسد المسيح ودمه وذلك عربون رضى المسيح عن القربان الذي قدم فلا يبقى امام المؤمن الا التقدم من التناول ليتحد

(١) صباح الخميس – النشيد الثالث – البيت الخامس .
(٢) صباح الاثنين – النشيد الرابع – البيت الثاني عشر .
(٣) ستار الاثنين – النشيد – البيت الرابع .
(٤) ليل الأحد – القيمة الثالثة حمها
(٥) ليل الأربعاء – القيمة الثالثة فمها

بالمسيح اتحاداً وثيقاً وعن نذر اية موهبة من مواهب الله تعوزه وفيه قد حلّ ينبوع المواهب وكنز العطايا الغني الذي لا يعرف الفقر والذراع الجبّار الذي لا يقهر ! .

وعند الموارنة كما عند بعض الآباء الشرقيين ليست المناولة حلول القربان فينا ولكنه اتحاد وثيق بكل ما في الاتحاد من قوة . « فبالمناولة يتزج المسيح بنا ونمتزج به »[1] وهذا ما يعبر عنه القديس افرام في الخامسة والثلاثين من قصائده في البتولية اذ يقول : « كهنة البيعة صافحتك راحتهم يا خبز الحياة الذي تنازل الينا وامتزج بجوارحنا »[2] وفي السابعة والثلاثين من هذه القصائد : « اختلط جسده بأجسادنا اختلاطاً لم يسبق له نظير وجرى دمه الطاهر في عروقنا . . . فامتزج كله بكلنا برأفته »[3] ويذهب القديس ماروتا[4] الى ابعد من هذا ويعبر عن هذا الاتحاد بنوع اجلى ووضوح اقوى : « حتى اننا كلما دنونا من جسد المسيح ودمه واخذناه على ايدينا نؤمن اننا نتناول جسد الرب ونصير لحماً من لحمه وعظماً من عظامه » وهذا ما علمتنا الكنيسة ان نتلوه في رتبة القداس بعد المناولة : « وحدت يا رب لاهوتك وناسوتنا ، وناسوتنا ولاهوتك ، حيويتك وميتوتنا ، وميتوتنا وحيويتك ، اخذت مالنا ووهبتنا مالك » .

بعد هذا الاتحاد الوثيق لا يبقى امام المؤمن الا ان يطلب حاجاته من الله عن يد الحمل السماوي .

فيطلب ان تكون الذبيحة ذبيحة تكفير كما ارادها السيد المسيح « ألم يرسم لنا الفصح الجديد جسداً يؤكل ودماً يهرق عنّا وعن كثيرين لمغفرة الخطايا » ؟ « انا اتى وكان ذبيحة عن الخطأة »[5] . عندئذٍ كل مؤمن يتناوله يجني لنفسه ثمرة التكفير هذه ويرضى الله كفارته « ويصفح عن آثامه بحق ذبيحة الابن الذي مات لاجل كل انسان »[6] .

(١) مساء الخميس – الصلاة التي تلي النشيد الأول .
(٢) لامي : الجزء الرابع – صفحة ٦١٧/٦
(٣) لامي : الجزء الرابع : صفحة ٦٤٢٣/٨
(٤) اسقف ميفرقين في اوائل القرن الخامس . مرجعاً لقرضنا مع القديس افرام ويعقوب واسحق الكبير .
(٥) مساء الجمعة حمعا
(٦) الخميس الساعة التاسعة حمعا

وليس يخفي المؤمن هذه الثمرة لنفسه وحدها بل له ان يشرك فيها من شاء. من نفوس الاحياء والموتى. فيمنح الله الاحياء نعمة التوبة، والموتى الراحة والنعيم. هو يطلب لنفسه ولنا نحن الاحياء حتى يمنحنا الله ان نسمع منه الصوت المملو. غفراناً ذاكراً جسده الذي اطعمناه ودمه الحي الذي اسقاناه راضياً بها »[1] . وعندما اقول نحن الاحياء اريد التنويه الى ان صلاته هي شاملة شمول القربان —سر المحبة— فيشرك بثمار هذا القربان كل البيع والاديار والكهنة[2]. والمصلي في « الفرض الماروني » اذا ذكر الاحياء. فلا ينسى الامهات من كهنة وعلمانيين فهو يطلب من السيد المسيح ان يستفيد الكهنة الموتى من الذبائح التي قدموها عن الخطأة . هو يطلب لهم المغفرة وحينئذٍ « تصفق ايديهم فرحاً بين اجواق ممجدي المسيح ، وتحمل اصابعهم اغصان المجد وتخرج للقائه ، وتريحه افواههم النقية بترانيم المجد »[4] والموتى المؤمنون لهم القسم الاكبر في هذه الشركة . فهو يطلب ان يكون الجسد الذي اكلوه والدم الذي شربوه لغفران ذنوبهم ومسامحتهم . وهكذا انقياء طاهرين يدخلون الى السماء .

صلاة شاملة تشمل الكنيسة كلها بجميع ابنائها في قسميها : المجاهدة والمتألمة . وليس هذا بالامر الغريب . فالمسيح « في الفرض الماروني يريد خلاص البشرية جمعاء . اليس الصليب المقدس هو هادم كل ضلال ومانح العالم الخلاص »[4] اليس لهذا قد ذبح المسيح نفسه عن الجميع ؟ الم يركز صليبه في متوسط الارض منهل دم عظيم لينهل منه كل انسان دون تمييز او تفرقة ؟ فمن على الجلجلة « ارسل ابن الله العهد الجديد للشعوب التي خلصها بصليبه »[5]. وبينما هو معلق على الصليب في متوسط الكون تكلم وعلى صوته اللذيذ والشهي تجمعت الشعوب حوله وقد كانت متبددة في عبادة الاصنام كسر جسده واطعمهم وبدمه الحي غفر خطاياهم »[6] . فحب المسيح لا حدود له بل يتخطى الحدود

(١) صباح الأحد — التشبيه الرابع مخصوص
(٢) ليل الاثنين — القومة الرابعة صوتا
(٣) ليل الجمعة — القومة الثالثة صوتا
(٤) الجمعة الساعة السادسة صوتا
(٥) ليل الاثنين — القومة الرابعة — التشبيه — البيت الخامس .
(٦) الثلاثاء الساعة السادسة مخصوص

والمباهات لهذا ترفع له الكنيسة « التسبيح والشكر والسجود لنهل دمه العظيم الذي فاض على الجلجلة في متوسط الارض »[1].

فمن هنا يظهر لنا كيف ان القربان هو قوت الارواح وعنصر وحدة بين ابنا. الكنيسة والشعوب. فمرى المحبة تتوثق بين المؤمن وسائر الشعوب بقوة الله الذي حلَّ في قلبه. ألا ترى هنا صدى لما جا. في تعليم الاثني عشر[2]: كما ان هذا الخبز كان منتثرًا في الجبال وصار واحدًا عندما التأمت اجزاؤه كذلك فلتكن كنيستك مجموعة من اقاصي الارض للدخول في ملكوتك ».

لا عجب اذا رأينا ان صلاة الشحيمة شاملة فهي صلاة كنسية بها يتحد الكاهن مع اخوته الكهنة في العالم اجمع فيصلي على نية الكنيسة لكي تزدهر وتنتشر، وبها تصعد صلاة المؤمن مع صلاة جميع المؤمنين ذبيحة مرضية تقدم على مذبح العلي فيقبل هذه الصلاة كذبيحة رضى وعبادة.

اما في هذا كله لا ينسى المصلي ذاته. فاذا كانت نار محبة الابن قد توقدت في ذهنه واذا كانت المحبة[3] فأخرجته من نطاق شخصيته المحدودة الى نطاق اوسع اذ ليس للمحبة حدود. اذا كانت المحبة حملته على التفكير بأنه في صلاته يمثل الكنيسة الجامعة، وان العهد الجديد هو لجميع الشعوب التي كانت في الظلمات هذا لا يعني انها انسته نفسه بل بالعكس فان نار محبة الابن هذه ما اتقدت في ذهنه الا لتعلمه حقيقة ذاته؛ فرأى انه في الحقيقة عضو فاسد في جسد المسيح ولا يستحق ان يمزج دمه اذا ظل على ما هو عليه من دنس خطيئة تلطخ صفحة نفسه، وشهوة قبيحة تحرك اعماقه وتبلبل كيانه، وشيطان مخاتل يريد ضرره، وموت سارق يهدد مصيره.

لهذا فهو يطلب من المسيح طلبتين: طلبة تقتصر على حياته هذه واخرى تمتد الى الحياة المنتظرة. فعلى مثال النبي داود يندم على خطيئته، ويعزم على الرجوع الى الله ابيه. ولكنه يريد ان يرجع الى بيت الآب طاهرًا نقيًا شيء ليس باستطاعته ان يحصل عليه بقوته الشخصية لذا هو يصرخ نحو المسيح

(١) ليل السبت – القومة الثانية ص٥٥٥
(٢) تعليم الرسل الاثني عشر ٩/١١
(٣) مساء الجمعة – النشيد الأول ص٥٥٥

« مستحلفاً اياه بدمه الحي ان يغفر له وان يغسله من ادناس الخطيئة »[1]. واذا كان الله لا يرضى بقربانه ، وامنيته الوحيدة هي هذا الرضى والقبول ، فهو يتجه اليه قائلاً : اذا شئت يا الله اقبل قربانا واغفر لنا وبيّض قلوبنا من وحل الخطيئة ولربما لاني خاطئ لا تحار لك ذبيحتي هذه « فالك دم ابنك مسفوكاً على الجلجلة لخلاصي وهو يشفع بي اليك فاقبل طلبتي بشفاعته»[2]. واذا ما طهر من ادناسه فهو يسأل الحمل الذبيح « بحق ذبيحته عن الجميع ان يبعد الشيطان حتى لا يضره وان ينجيه من الشهوة القبيحة »[3] وذلك يحصل عليه عندما يكون له من جسد المسيح الذي اكله ترساً يتقي به سهام الخبيث المتقدة[4].

وكأنه حصل على ما طلب لان الايمان الذي يسير به قلبه يجعله يتيقن من الحصول على ذلك . لذا فهو يقدم السجود والعبادة لله الآب لانه ارسل ابنه ليحررنا من عبودية الخطيئة «الشكر للآب الذي ارسل ابنه ليحررنا»[5]. ويقدم السجود للابن الذي ركز صليبه وذبيحته منهل دم عظيم في متوسط العالم[6] لتجني منها البشرية كلها الثمار الخيّرة. واخيراً السجود له لانه اعطى السلطان للكهنة حتى يجددوا ذبيحته عبر الاجيال « وعليهم ان يخدموا اسراره»[7].

فالشكر له على محبته لنا وموته لاجلنا ، ومباركة لانه ذبح نفسه فداء عن كنيسته ومنحها جسده مأكلاً ودمه مشرباً. شكراً له ولابيه الذي أرسله ولروحه القدوس الذي به تمّ سرّ فدائنا .

والشكر واجب لان الاتحاد بالمسيح هو عربون الحياة الدائمة على حدّ ما قال السيد المسيح : « من يأكل جسدي ويشرب دمي له الحياة الابدية وأنا اقيمه في اليوم الاخير ». وعلى غرار ما علمنا الآباء القديسون اذ نعت اغناطيوس الانطاكي سر القربان « بدواء عدم الموت وسمّاه آباء نيقية : « بسر القيامة »

(١) صباح الجمعة – النشيد الأول – البيت الخامس .
(٢) يا أبا الحق .
(٣) ستار الأحد حده١١
(٤) ستار الأحد حده١١
(٥) يا أبا الحق .
(٦) ليل السبت – القيمة الثانية فنه صم
(٧) ليل الأربعاء – القيمة الثالثة حده١١

وقال فيه ايرونيموس : « ان اجسادنا التي تغذت بالقربان اخذت لها حالة عدم الفساد » .

والماروني بدوره مؤمن ان القربان مصدر حياة في هذه الدنيا وفي الآخرة. هو خبز الحياة الذي جاء من سريم أكله آدم وقام حياً من الموت . وهو « خشبة الحياة » التي هدمت كل ضلال ومنحت العالم الخلاص[1] . وهو الثدي الذي رضعت منه العوالم الحياة والنور. ومن تناول القربان كان له جسد المسيح ودمه بمثابة « راية حياة »[2] اذا رآها العدو هرب لانه يعلم ان القلب الذي اقتبل جسد الرب الطاهر لن ينزع الى حب غير مستقيم، واللسان الذي لمسه لن ينطق بكلمة سوء، والقوى التي كفى حاجتها واشبع جوعها لن تتوق اليه لتعيش معه وتحيا دون المسيح . نعم يهرب الشيطان لانه يرى ان الاجساد التي جرحت بسهامه المتقدة والانفس التي وقعت بشباكه الخفية قد شفيت وخلصت بقوة « دم الحياة »[3] .

وهذا الثدي الذي رضعت منه العوالم كلها الحياة والنور هو في بادئ الامر غذاء للكنيسة ولابنائها . فالذبيحة هي وليمة اعدها العروس لخطيبته[4] التي « بدم جرى من جنبه شيّدها[5] وبالمحبة كملها وبالآلام اشتراها . والكهنة عندما يوزعون جسد المسيح ودمه قائمًا هم « يوردون قطيع المسيح كل يوم بالايمان موارد كأس الحياة والخلاص »[6] .

وهذه الكنيسة التي شيّدها على الارض بدمه وآلامه وغذاها بجسده اتاح لها ان تنمو بالمحبة حتى السماء لان القربان كما رأينا ليس مصدر حياة فقط بل هو مصدر قوة باعثة .

فالمسيحي الذي تغذّى كل يوم بالحياة وشرب من مورد الخلاص بنوع ان صورة الله التي خلق على مثالها اخذت تنمو فيه وتكبر لا يمكن ان يبلى

(١) الجمعة الساعة السادسة صيوا
(٢) صباح الخميس – النشيد الثالث – البيت الخامس .
(٣) صباح الخميس – الصلاة التي تسبق النشيد الثالث ܟܪܝܣܛܘܣ = «Christus»
(٤) سحر الأحد – النشيد ههصما
(٥) ليل الأحد – القومة الثانية ههصما
(٦) ليل الأربعاء – القومة الثالثة ههصما

بالجحيم « لان جسد الابن ودمه مكنونان فيه عربون خلاص»[1] وكما كانت هذه الحياة هنا راية تخيف العدو فيولي هارباً هي هناك تقي من النار : فجهنم وان توقعت ان تعذبه فلن تقوى على ذلك والنار وان هددت اعضاءه فلن تتوصل ان تمسها بل ان النار تنطفئ وجهنم تبتعد «لان الاعضاء اختلطت بالجسد المحيي والدم الكريم قد امتزج بها »[2].

عندئذٍ وقد خلص المؤمن من الموت الابدي فلا يبقى لهم الا ان تنتفض اجسامهم من القبر وتنبعث اعضاؤهم من الرميم فيقومون مع ابن الله وقد اتشحوا بحلة المجد ، ويفرحون يوم ظهوره مرتلة افواههم التي تناولته « عربون الحياة الخالدة » ترتيلة المجد الابدية .

٥

الكنيسة هي واحدة . ومن علامات الوحدة فيها هو التعليم الواحد للعقائد. فلرئيس الكنيسة والآباء القديسين يرجع هذا التعليم . نعم ان الروح يهب حيث يشاء ولكنه يهب اولاً عند من يرجع اليه الحق في التعليم . فيعطي موهبة علمه وتدبيره الى الكنيسة المعلمة حتى هذه تسلمه بدورها الى الكنيسة المتعلمة «واذا رجعت انت فثبت اخوتك» . ولكن اذا ادّعى كل شخص انه معلم ومفسر لتعاليم المسيح ، اطاح التفسير بوحدة الكنيسة ، وهدد التعليم كيانها بالخراب « لان كل مملكة انقسمت على ذاتها خربت ».

انما هذا لا يمنع ان تكون الحياة الروحية موجودة عند الجميع تغيثها الطوائف كلها وتحياها . واذا كان التعليم منوطاً بالكنيسة المعلمة ذلك لا يمنع ان تسهم الكنيسة المتعلمة في بناء صرح العلوم الدينية والعقائد المسيحية . فيأتي الرأي والتعبير عما تحياه هذه الطوائف مناسباً لما تعلمه الكنيسة الجامعة داعماً هذا التعليم غير ماسّ بجوهر الدين ولا بشكل من الاشكال . فكثيراً ما تعتمد الكنيسة المعلمة وتستند في نشر عقيدة على ما تشهده وتلمسه في حياة وشهادة الشعب المسيحي الكاثوليكي .

(١) البيت الساعة الثالثة صحا!!
(٢) سماء البيت – النشيد الأول – البيت السادس .

والكنيسة المارونية قد عاشت العقائد المسيحية وعبرت عنها بصلوات فطرية اتت عفو الخاطر بها ناجت ربها وحملتها الاجيال مرددة تلك المناجاة .

وفي موضوعنا هذا «القربان في الفرض الماروني» لم تعبر الكنيسة المارونية عن حياتها القربانية الداخلية بطرق منطقية واساليب علمية بل بشذرات ذهبية ، مشتتة هنا وهناك في الشحيمة ، مزينة صفحاتها . اننا لا نعلم بالضبط الى متى يرجع عهد هذه الصلوات ولكن جلّ ما نعرفه هو انها وصلت الينا مثقلة بحياة عاشها جميع افراد الطائفة واستلمناها صلوات عابقة ببخورات ذكية ، قدمتها ايادي كهنة انقياء ؛ وترانيم شجية رتلها رهبان قديسون ؛ وروائح عطرية نفحتها فضيلة شعب طهور . صلوات مجبولة بعواطف ايمان ، ورجاء ، ومحبة للسر الذي « محا كل الذبائح والاسرار » .

المراجع

Dom F. J. Moreau, *Les liturgies eucharistiques*, 1924.
S. Salaville, *Liturgies orientales*, 1932.
S. Salaville, *Liturgies orienteles*, la messe 2t., 1942.
Josefh-André Jungmann, *Missarum Sollemnia* 3t., 1950.
A. Hamman, *Prières eucharistiques des Iers siècles*, 1957.
Lamy, *Hymnes et Sermons de St. Ephrem*, 1883.
M. Breidy, *L'office divin de l'Eglise Syro-Maronite*, 1960.

المورادسقف بطرس حبيقه ، الاوخارستيا والكنيسة السريانية المارونية ، ١٩٣٠ .
المطران يوسف الدبس ، الحضور الحقيقي والكنائس السريانية الكاثوليكية ، ١٨٩٣ .
المورادسقف بطرس حبيقه ، ماري افرام السرياني والاوخارستيا ، الجزء الثاني ، ١٩٣٩ .
المورادسقف بطرس حبيقه ، اناشيد الموارنة السريان في مر القربان ، ١٩٣٩ .